



الظهر العاري

◆ خالد جبور

فلسطين

سمعته يهتف باسمي
أثناء انشغالي بالحديث إلى
القصاب، وما إن أدت
وجهي للوراء حتى رأيت
يعبر باب المحل بوجه
شاحب، يكاد يخلو من كل
أثر للحياة أو المشاعر،
ويتقدم نحوي على مهل ماداً
يده للسلام، وإذ لم أتمكن
من التعرف عليه فوراً، فقد
جمدت في مكاني، ورحت
أحدق في وجهه المألوف لي
بكثير من التشبث والإحراج،
لاعناً في سرّي ذاكرتي
الضعيفة في حفظ الوجوه
والأسماء، فقال وهو يضع
يده في يدي :

-يبدو أنك لا تتذكرني
يا صديقي . أنا عرفتك من
لوحتي كتفيك، فكيف لا
تستطيع أنت أن تعرفني من
وجهي !؟



وقال له بما يشبه الزجر :
 -لا تُشغل بالك . نحن لا نتشاجر !!
 ابتسم القصاب بإحراج لا يخلو من الخبث أو
 السخرية، وقال رافعاً صوته :
 -أعرف، فالأساتذة الكرام من أمثالكما لا
 يتشاجرون .
 وضعت يدي، لا شعورياً، على كتف عدنان،
 وقلت دون أن يخف انفعالي :
 -بالتأكيد نحن لا نتشاجر، ولكنك تهمني
 بشيءٍ خطير .
 حكّ عدنان جانب عنقه، كاشفاً ياقة قميصه
 المتأكلة من الداخل، وقال بصوت أكثر خفوتاً :
 -لا اتهام ولا غيره، ولكنني أتذكر أنك وسّطت
 ابن عمك من أجل ترشيحك للإعارة ..
 قاطعته بسرعة وحدة:
 -وماذا في ذلك ؟! الناس كلهم يفعلون هذا !!
 اعترك وجهه قليلاً، وقال :
 -أنا لم أقصد مناقشة هذا الأمر معك، ولكنني
 أردت أن تعلم أنّ مساعي ابن عمك نجحت في
 شطب اسمي من قائمة المرشحين للإعارة في تلك
 السنة، وتسجيل اسمك مكانه .
 أحسست بمشاعر الخصومة تملأ صدري،
 فقلت بنبرة هجومية تماماً :
 -وما أدراك أنّ هذا هو الذي حصل ؟!
 واجه غضبي بابتسامة شديدة الغموض، وقال
 بعد فترة قصيرة من الصمت :
 -لماذا أنت زعلان ؟! صدقني ، إنني لا أعاتبك
 أو ألومك، فقد نسيت هذه الحكاية من زمان، أمّا
 وأنت قد زعلت من مواجهتي لك بالحقيقة، فهذا
 شأنك ، ولا أستطيع أن أمنع منه .
 شعرت أنّه يريد أن يغيظني أكثر فأكثر،
 فتشبّثت بسؤالي الأخير له، وقلت بتحدّ ظاهر :
 -عن أيّة حقيقة تتحدّث يا رجل ؟! أنت لا
 يمكنك أن تثبت أنّهم شطبوا اسمك، وسجّلوا
 اسمي بدلاً منه .
 هزّ رأسه بتسليم، وقال :

قلت وأنا أشعر بالمزيد من التشنّت والإحراج :
 -كيف لا أعرفك يا رجل ؟! أنت أحد زملاء
 الدراسة ولا شك، ولكن اسمك الكريم هو الغائب
 عني ..
 طفت على وجهه ابتسامة خفيفة، وقال :
 -بل أنا أحد زملائك القدامى في العمل،
 وحتى أسهلها عليك ؛ أذكرك بأننا عملنا معاً في
 المدرسة الإعدادية قبل عشر سنوات تقريباً ..
 ضربت جبيني بإطراف أصابعي، وصحت :
 -عدنان .. أنت عدنان !! يا الله !! كيف لم
 أتذكرك على الفور ؟!
 طفت بابتسامته الخفيفة من جديد على وجهه،
 وقال كأنما ليخفّف عني :
 -ربما بسبب طول الفراق وبُعد الزمان !
 قلت وأنا أتفرّس في وجهه :
 -وربما لأنك تغيّرت كثيراً يا رجل !! فأنت
 بالكاد تشبه عدنان الذي عرفته !! ..
 شردت عيناه باتجاه الجزور المعلقة، وتمنم
 بكلمات لم أفهمها، ثمّ التفت إليّ فجأة، وسألني :
 -أما زلت تعمل في الخليج ؟!
 هزّرت رأسي بالإيجاب، وقلت موضحاً :
 -نعم، فبعد انقضاء سنوات الإعارة، استقلت
 من وظيفتي هنا، وواصلت عملي هناك بعقد
 شخصي مفتوح يُجدد سنوياً .
 اكتسى وجهه بشحوب فوق شحوبه، وفوجئت
 به يقول دون مقدمات :
 -تلك الإعارة كانت من حقّي ، لعلك تذكر ذلك
 ؟!
 ومع أنّه تكلم بصوت محايد، لا أثر فيه
 للضعينة أو الهجوم، إلا أنّني لم أتمالك نفسي،
 ووجدتني انتفض بشدة، وكأنه ضربني على
 رأسي، فصحت فيه كالماخوذ :
 -ماذا تقول يا رجل ؟! أرجو أن توضّح لي
 قصدك في الحال !!
 توقّف القصاب عن تقطيع اللحم، وأخذ ينظر
 إلينا بفضول، فأشار عدنان إليه ليواصل عمله،

شَدَّ عدنان على يدي، وقال بنبرة طافحة بالسخرية :

-والدليل على صحّة ما تقول يا عزيزي ؛ أنّك تستطيع شراء كلّ هذه الكميّة من اللحم، بينما لم يذق أطفاله له طعاماً منذ سنة شهر أو أكثر !! .. شعرت، للحظة، بالرغبة في لطمه، أو الإمساك بخناقه حتّى الموت، وكدت أصرخ في وجهه: ((أيها الحاقد الحسود)) !! لكنّ قوّة ما، قوّة غريبة أكبر منّي، كبّلتنني، وجعلتنني لا أفعل شيئاً سوى التحديق في وجهه بذهول، فسحب يده من يدي بصمت، ومضى خارجاً دون أن يلتفت وراءه، وغاب كأنّه طيف عبر خيالي .

قال القصاب كأنّما ليزيد الطين بلّة :

-إنّه رجل مسكين ، مسكين فعلاً !!

لم أستطع أن أعلّق بشيء، أو أرفع نظري إليه . نقدته ثمن اللحم، وحملت الكيس بوجوم، واستدرت خارجاً بخطوات ثقيلة، شاعراً بنظرات القصاب تنغرز كالسهم في ظهري العاري!!!

-صحيح، كلامك هذا صحيح، فبعد مرور عشر سنوات، لا يمكنني أن أضفر بذلك الدليل المادي الملموس، الذي رأيته مصادفة بأمّ عيني أثناء مراجعاتي للوزارة في تلك الأيام، إذ إنّهم، بالتاكيد، لا يحتفظون بالمسودّات في الأرشيف .

لم أعرف ماذا أقول، وجاء تدخل القصاب المفاجئ كحبل النجاة لي، إذ سمعته يهمس بصوت من يرغب في الإصلاح وتهدئة الخواطر :

-كل إنسان يأخذ نصيبه في هذه الدنيا !!

التفت إليه، فوجدته يُنقل عينيه فوق وجهينا بتائر واضح، وحين لم يفه أيّ منّا بكلمة، حمل كيس اللحم الكبير، ووضعه على الحاجز الخشبيّ الذي يفصل بيننا، وأردف موجّهاً كلامه لي:

-اللحمة جاهزة يا أستاذ .

مددت يدي لمصافحة زميلي القديم، وقلت مكرراً كلمات القصاب :

-فعلاً، كلّ إنسان يأخذ نصيبه في هذه الدنيا!!

❖ إذا فشل الإنسان في التوفيق بين العدالة والحرية، فسوف يفشل في كل شيء .

❖ إنّ أكبر معركة يجب أن يخوضها الإنسان هي معركته مع نفسه .

-ألبير كامو-

- أدونيس -

❖ (الجنة أن تعرفوني.... النار أن تجهلوني)